الباب الخامس

في البحث عَن سَند روحي للحضارة

obeikandl.com

obeikandl.com

الوصاية على الحضارة

للأقوى أم للأتقى؟!

نريد أن نتناول من بعض النواحي مبدأين متعارضين: الأول سند الحضارة المادية، والثاني سند الحضارة الإسلامية، ولعل في هذا البحث ما يكشف عن العوامل الخفِيّة لسقوط الحضارة، وما يفسر بعض أسباب الاضطراب العالمي أثناء هذا القرن.

فما هو الحق؟ هل هو للأقوى أم للأتقى؟

الشعلة المتنقلة بين الأجناس

إذا استعرضنا تاريخ الأقوام منذ بضعة آلاف من السنين، نجد أن الحضارة لم تَثْبت في مكان واحد، ولا دامت لقوم وحدهم، فهي كسلعة الذهب، تمر بأيدي الناس جميعًا، وقد ترجع إلى اليد التي ذهبت منها بعد أن تطوف الكرة الأرضية.

فالمدنيّة متاع مُشَاعٌ يَكسِبه من قَدَر على الاحتفاظ به عهدًا، ثم لا يطيق حمله فيتخلى عنه فيقع على كتف الأصلح لحمله، حتى إذا خارت قواه تخلى للأصلح وهكذا؛ فالتاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول، ويأبى أن يشهد لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصلاح الذاتيّ أو الاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة لِميزَة طبيعية موروثة وملازِمة للعنصر.

قصور «علم الإنسان»

وكذلك إذا استعرضنا «علم الإنسان» أو «الأنثروبولوچي»، ونظرنا في الأجناس البشرية، نجد هذا العلم على حداثته وغموض بعض نواحيه، يُرشِدنا إلى الفروق أو الميزات البدنية بين قوم وقوم، ولو أنه لا يساعدنا على إدراك الفروق الرُّوحية والذهنية، وقد نَخرج من محيط العلم الصادق إلى النظر والفروض كلما حاولنا تثبيت قواعِده على أساس الفُروق النفسية والرُّوحية بين قوم وقوم؛ لنستخلص منها مؤهلات هذا العنصر دون ذاك لرسالة الحضارة والمدنية.

نعم إن بعض الأبحاث «الأنثروبولوچية» الحديثة قد تعِين على قياس صفة الذكاء بين طائفة وطائفة من البشر، ولكنها لا تُعِين على تحديد للصفات المعنوية الكثيرة، والغرائز المتعددة، ومظاهر

هذه الغرائز؛ وبذلك لا تَهْدِي إلا إلى أقَلِ العناصر النفسية شأنًا في تكييف قيمة عنصر وآخر لحمل رسالة الحضارة التي تتطلب مجموعة من المعاني والقوى النفسية وتوازن هذه المجموعة.

فإن كان «علم الإنسان» هيّأ لنا قدرًا من العلم نعرف به صفات نَرُدُّ بها الناس إلى بعض أصولها القديمة، فإن هذا العلم لا يزال فيما عدا ذلك يتخبط بنا في المجاهيل، وإذًا فليس لدينا دليلٌ علميٌّ يجعل أحد العناصر يمتاز بطبيعته وقوته على العناصر الأخرى لحمل رسالة العُمران والحضارة والعلم.

❊ ❊ ❊

ولننظر أولًا في الفروق العنصرية بين الأقوام التي قامت على أكتافها المدنيات المختلفة، منذ أن شاد الفراعنة هذه الأهرام شاهدًا على الشَّأو البعيد الذي بلغوه في المدنيّة وسبقوا به الناس كافّة.

أدوار الحضارة ومن مثلوها

قامت مصر بالدور الأول، بل الدور الأهم في تاريخ الحضارة البشرية؛ فهي التي علّمت الناس الزِّراعة والبناء والكتابة.

ثم جاء السومريون والبابليون والفينيقيون والأشوريون والكلدان والفرس واليونان والقرطاجنيون والرومان والعرب، ثم الأقوام الأوروبية والأمريكية الحديثة، يضيفون إلى الحضارة ويجددون. فإذا فرضنا أن أول الحضارة في مصر وآخرها الآن في أمريكا ـ إذ ليس عندنا دليل على البداية أو علمٌ بالنهاية ـ وتجاوزنا مؤقتًا عن نصيب الأقوام الصَّفراء وأثرها في حضارة هذا الشِّقِّ من الكرة الأرضية، أمكننا حصرُ الحضارة التي نشير إليها في العناصر النازلة في غرب آسيا وشمال إفريقية وفي أوروبا وأمريكا.

من «علم الإنسان»

وقد اتفق علماء الأجناس «الأنثروبولوچي» على أن هؤلاء البِيض ثلاثةُ فروع من العنصر القوقازي (❊)، بينهم اختلاف بدَنِيٌّ واضح ومحدد، ومنازل العناصر الثلاثة تمتد متوازية من الشرق إلى الغرب.

ففي الساحة الشمالية نجد الشماليين «النورديك» وجنوبًا منهم «الألبيين» وجنوبًا من هؤلاء «المتوسطيّين»، أو قوم البحر الأبيض المتوسط، وهم سكان ما حول هذه البحيرة.

(❊) رحم الله المؤلف، فقد كتب هذا في أربعينيات القرن الماضي، والتقسيم الأنثروبولوچي الحديث يقول إنهم ثلاثة فروع من العنصر القوقازي.

الفروق البدنية لا تكيف الحضارة

فللشماليين الأجسامُ الطويلة، والعيون الزُّرْق، والرؤوس المستطيلة، وللألبيين الرأس المستدير، وللمتوسطيين الرأس المستطيل، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين، وسوادُ العيون والشعَرِ. ولا حاجة بنا للخوض في الفروق البدنية التي حدد بها علماء الأجناس هذه العناصر، واستدلوا على وجودها قديمًا وأثرها حديثًا، فإنها لا تُغْنِينا كثيرًا في تكييف الحضارات القديمة؛ إذ ليس بين أيدينا أدلةٌ قاطعة على حقيقة الأقوام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب، ولأن البحث العلمي نفسه الذي دلّنا على ميزات بدنية بين العناصر الثلاثة التي يتكون منها العنصر الأبيض الكبير، دلنا كذلك على أنه لا وجود لأحد منها في وطن معيّن خالص له؛ ففي بريطانيا نفسها تلك الجزيرة الشمالية توجد العناصر الثلاثة، وليست حتى بنسبة بُعْدها عن هذه الجزيرة، بل إن «المتوسطيّين» فيها أكثر نسبة من «الألبيين»، وكل ما نستطيع تحقيقه علميًّا هو أن نثبت رُجْحان صفة بدنية في أمة من الأمم من صفات هذه العناصر على صفاتها الأخرى.

وحتى إن استطعنا تقرير ذلك علميًّا من الناحية الجسمانية كما قلت، فإننا لا نزال بعيدين جدًّا من قياس العوامل والآثار النفسية في شعب من الشعوب، وإدراك هذه الآثار باعتبارها نتائجَ لتفاعُلِ الدمار الموروثة من الأقوام المختلفة.

المدنية ليست اختصاصًا لقوم وحدهم

وإذًا يَصحّ لنا أن نتساءل: لِمَنْ هذه الحضارة؟ وهل يجوز نسبتها لجنس دون جنس؟

ثم ألم تكن الشعوب القديمة نفسُها وأقدمُها الفِرْعونية المصرية منذ آلاف السنين كما هي اليوم خليطًا من الأجناس تغلب عليه جنسية البحر المتوسط؟ وما هي البضعة الآلاف من السنين التي نعرف شيئًا قليلًا عنها منسوبةً إلى عشرات الآلاف في التاريخ البشريّ الذي لا نعرف شيئًا عنه؟ وسواءٌ قامت بعض الحضارات القديمة على أكتاف أحد العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها والتي حددها علماء الأجناس في الناحية الغربيّة من الأرض، أم على أقوام متوالدة من اختلاطها، فإن أمرًا واحدًا لا شك فيه، هو أن المدنية ليست امتيازًا ولا اختصاصًا لعنصر منها، ولا هي لازمةٌ له وتابعة لصفاته الخاصَّة؛ فليست نتيجةً للقوة الطبيعية الموروثة له، وليس سَنَدُها هو حق الأقوى بحال من الأحوال.

هي أثر للحالات النفسية

والحضارة إذًا بجميع نِتاجها الماديّ والأدبيّ أثرٌ لحالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميِّزة

لقوم على قوم، ولو أننا ذهبنا بعيدًا وحاولنا الاستدلال بالمعلوم على المجهول، وقلنا إن الصفات البدنية تشير إلى خصائصَ نفسية لا نزال بعيدين عن علمها، فإن ذلك لا يغيّر من الحق، وهو أن العناصر التي نَعرِفها، لم تختصّ على طول التاريخ البشريّ بالعقل أو العلم أو الابتكار، حتى نَنْسُبَ شيئًا من هذا إلى صفتها العنصرية، ومن الواضح أن النفس وحدَها هي التي تضيء فتُنير ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصَّة، وتهيأت لها بيئةٌ روحية خاصّة، فسندُ الحضارة هو الرُّوح والخُلُق لا القوة المادية.

قانون قرآني

وما أصدق القانونَ القرآنيّ في هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

ولو فرضنا أن الصفات النفسية تُورَث كما تُورَث الصفات البدنية، فإنه مما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هي التي تكيِّف القوى الذهنية، وأن العقيدة والآداب القويّة هي المنشئ والحارس للمدنيَّة.

إننا نجهل كُنْه الرُّوح وحقيقة النفس، كما نجهل أسباب انفعالاتها ومَداها وآثارها ومصادرَها وعواقبها؛ مما يمنع تقرير أصول علمية نميِّز بها بين صفات الأقوام النفسية كما نميّز بين صفاتها البدنية. وكل ما يمكن تقريُره بالمشاهدة والاستقراء في الحال أو في الماضي، يُشِير إلى استعداد متشابه عند جميع الأقوام لتلقِّي العلم أو الأدب، أو بعبارة أعمّ؛ لتلقي الحضارة كيفما تلوّنت ومن أي جهة جاءت.

مساواة تامة بين الأرواح البشرية

وإذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تُحدِثُها البيئة والمَناخ في بعض الحالات، فإنَّا نستطيع أن نطمئن إلى القول بالمساواة التامّة بين الأرواح البشرية، أو بعبارة أخرى: إننا لا نعرف دليلًا على عدم المساواة. وتداولُ العلم والابتكار، بل وتداوُل الجهل والفساد، دليلٌ على استعداد مشترك ومتساوٍ للخير والشر، وإذا كان كل ذلك من آثار العَيْش تحت عوامل مختلفة فإنه يُشِير إلى وحدة الرُّوح، أو بعبارة أخرى، وحدة القُوى الذِّهنية، أو تَمامِ تشابهها.

وهذا يكفي لنَفْي امتياز بعض العناصر البشريَّة على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدها رُجحانًا دائمًا.

وحدة التكليف الديني ومغزاها

ويَحِقُّ لنا أن نقول إنه ليس في الصفات البدنية ولا الصفاتِ الرُّوحية ما يدلُّنا على خلاف يجعل المدنية حِكْرًا لطائفة من البشر، أو يمنع من المساواة في التكليفات التي جاءت بها الشريعة المحمدية.

ومتى وَضَحَ ذلك انهارت الدعاوى العنصرية، وانهار معها مبدأ القوة كسنَدٍ للحضارة؛ لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيَّأت قَومًا دون آخرين للعرفان والعُمران، لجاز أن يحمل هذا القومُ غيرَه على الاحتذاء به، بل لكان في سيطرته وقَهْرِه غَيْرَه فائدةٌ عامّة.

وكما أن العلم لم يُثبِت لأحد رحجانًا، كذلك التجربة دلت على أن الأقوام إنما تَستَخْدِم ما أوتِيَت من قوة في الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال المغلوبين لأسباب عارِضة، وقد بيَّنا أن الغَلَب ليس ناشئًا عن صفات أصيلة طبيعية في عنصر ما، وكذلك دلّ تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالبها، بل قد تندثر بسبب هذا الغلَب.

دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت

فالقول بالحق للأقوى، هو قول يرجّح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعي، ويُبِيح الاستبداد للقادرين عليه، ويمحو حق المستضعفين، وهو قول تأباه الشريعة المحمدية كلَّ الإباء؛ فهي التي جعلت الناس سَواسِيَة، وجعلت الحقَّ للأتقى والأبَرّ، وقررت أن الناس أسرة واحدة، أكرمهم عند الله أتقاهم.

ميراث النفس الطيبة

وهي التي يقول رسولُها العربيُّ الأمين: «لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى»، فليس أكرم الناس أقواهم بدنًا وأضخمهم ميراثًا، ولا أكثرهم عِرفانًا، بل أطيبُهم نفسًا؛ لأن النفس الطيِّبة هي التي تملِكُها التَّقْوَى فتمنعُها من فعل الشر وتَحُضُّها على فعل الخير.

* * *

قيام المدنيّة ودوامها

بيَّنا أن سندَ الحضارة الإسلامية هو حقُّ الأتقى والأبرّ، وقلنا إن الأرواح متساويةٌ، وإن «علمَ الإنسان» لا يزالُ قاصرًا عن بيان حقيقة القوى الذهنية وكيفيّة انفعالها بالمؤثرات، وأثبتنا أن الفوارقَ العنصرية الظاهرة في أجسام البشر لم تُرشِدْ إلى امتيازٍ بينها في خَلْق الحضارة، وهي قطعًا لا تجعلُ لقوم امتيازًا على قوم في الاختصاص بها.

مداولة الأيام بين الناس

والتاريخُ البشريُّ يشيرُ إلى الحضارة كأنها شعلة متنقلة، ويَدلُّ على أن الأقوام التي أخرجت أعظم المدنيات، ما لبِثت أن هوت من شاهق مجدها إلى الحضيض.

فإذا تعقبنا الأممَ أمةً أمةً في مدى خمسة آلاف سنة نجدُ أن هناك قاعدةً لا تتخلّفُ، وهي أن الأمة ترتفعُ ثم تَهْوِي كما تَقذِف بالحجر إلى أعلى فيصلُ إلى مَداه ثم يقفُ ثم يهبطُ عموديًّا إلى الأرض، وكأَن الأمةَ التي ارتفعت شيءٌ آخرُ غيرُ التي هوت وتحطمت، بل إن بعض الأمم التي لا يزالُ أثُرها يُدَوِّي قد بقيت سلالتُها ذاهلةً عن عزّتِها، كأَنْ ليس بينها وبين آبائِها صلةٌ! فما الذي رفعها؟ وما الذي خَسَفها؟.

التفسير المادي للتاريخ

لقد تعددت العللُ؛ فالذين يفسّرون التاريخ تفسيرًا اقتصاديًّا يعللون هذا التداول الذي عبّر عنه القرآنُ أوجز تعبير في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] بعلل مادية، ويفسرون الصعود والنزول بأسباب تنحصر في المادّة، فإخصابُ الأرض لسبب طبيعيّ، أو تحوُّلُ المطر أو زيادتهُ أو تغيّرُ الجو، أو اكتشافُ طرق جديدة يتبعُها تغيّرُ سبل النقل للتجارة، أو اكتشاف أرض جديدة، أو ابتكارُ آلة، أو استخراجُ معدن أو استخدام وسيلة ما، أو غير ذلك مما يُغْني ويَزيدُ في القوى المادية، هو العنصر الذي يدفعُ بقوم إلى التحضر وحياة العُمْران، كما أن فقدان الرجحان الاقتصادي يتبَعُه التدهورُ والانحطاطُ.

التفسير العنصري للتاريخ

ويرى آخرون أن سبب ظهور أمة ما هو في ذات جنسها، وما يحصلُ من تزايد القوى الكمينة في

ميراثها العنصريِّ، وذلك بأن تمتزج مع قوم آخرين قريبين منها، فيخرجُ من التوالد عنصرٌ أقوى يندفعُ إلى أعلى بما هو كمينٌ فيه من القوى الموروثة، فيسمو ويُضِيفُ للتراث البشريّ علما ومدنيةً.

مناقشة التفسيرين

وهي أقوالٌ لا تكفي لتفسير الواقع ولا تَحُلُّ اللغزَ؛ فكثيرًا ما قام بالحضارة قومٌ، أو سقطوا واندثروا من غير أن تكون العواملُ الاقتصاديةُ سببًا في الظهور والاختفاء، بل إن قدماء المصريين وهم رأسُ الحضارة البشرية، وقدماء البابليين، هم الذين زرعوا الصحراء، ولم تكن الصحراءُ هي التي زرعتهم.

وخروجُ العرب من شبه الجزيرة وانتشارُهم، ووصلُهم بين حضارات الأقدمين والحضارة الحديثة، وابتكارُهم وافتنانهم في العلوم والصنائع، لم يكن لأسباب اقتصادية محلية، كما أن سقوط العرب والرومان والمصريين والبابليين لم يكن لأن أرضهم أجدبت، ولا لأن جوَّهم تغير، ولا لأن طرقًا جديدة أو أوطانًا جديدة قد اكتشفت.

وكثيرًا ما كان الحرمانُ الماديُّ سببًا لظهور أقوام وتغلّبهم على المادة وحصولهم على ما يريدون بكفاحهم ليُخرجوا للعالم حضارات ضخمة، ومَثَلُ اليونان والعرب والفينيقيين واضح، وخيراتُ أمريكا وإفريقية الوسطى لم تَبعث قومًا جُددًا في آلاف السنين، وإنما بعث أمريكا المغامرون المحرومون.

كذلك لم يقم دليل علميٌّ على أن توالد قوم فيما بينهم وعدم اختلاطهم سببٌ في انحطاط هؤلاء القوم، بل بالعكس.

نعم لقد قيل إن ظهور الحضارة المصرية القديمة كان عَقِبَ وُرُود قوم من أسلاف العرب امتزجوا مع أهل الوادي وصارُوا قدماء المصريين الذين بَنَوْا الأهرام، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاشَ قوم من الأقوام كان لازمًا لمثل هذا الحادث.

فلا النظريةُ الاقتصاديّةُ ولا النظرية الأنثروبولوجية «نظرية علم الإنسان» كافيةٌ لتفسير أسباب ظهور المدنية أو سقوطها؛ لأن كلًّا من النظريتين قد يفسِّر حالةً، ولكنه لا يطّردُ مع الحالات الأخرى.

التفسير الروحي

وإذا دققنا النظر نجدُ أن الأسبابَ الرُّوحية والمعنوية هي التي ساعدت دائمًا على الظهور أو الاختفاء، ونجدُ العللَ الأدبية ملازمةً لجميع الحالات في كلِّ الأقوام، والقرآنُ كما أشرنا في الفصل السابق يؤكدُ هذا المعنى في كثير من آياته، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، ويقولُ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والعُمران إلا كانوا مهيَّئين لهذا بإيمان قويّ ودعوة قوية، وما من أمة تضاءلت عقائدُها وانحط أدبُها وتذبذبت إلا أصابها ما أصاب مَنْ قبلها فهوت كأن لم تكنْ شيئًا مذكورًا.

بارود القذيفة

فالعقيدةُ الصالحةُ والأدبُ القويُّ والعرفُ الصالحُ كقوة البارود في دفع القذيفة، تدفعُ الأُمَمَ بقدرِ ما في عقائدها من قوة واستقامة.

ساعة الفصل بين التقدم والتأخر

وإذا أسمينا العقائد والآداب والعرف بالقوة المعنوية، فإن هذه القوة الدافعة تسوق الأمم إلى الأمام، حتى إذا ما تبددت بقيتْ الأممُ حيثُ أوصلتها الدَّفعةُ الأولى، ثم هوت إلى الأرض كتلةً لا تَعِي، وكأنما سُلِبت حياتَها، والتاريخ يشهدُ على أن انحطاط كلّ قوم من الأقوام يبتدئ حيث تبلغ السيطرة الماديةُ حدَّ التسلط على حياتها، تسيِّرُها وتحلّ محلَّ السيطرة الرُّوحية والمعنوية، أو بعبارة أخرى حين تغلب شهواتُ الأبدان شهوات الأرواح، تلك هي ساعةُ الفصل بين التقدم والتأخر.

نظرة تشاؤم إلى المدنية الحاضرة

وأكثرُ المتشائمين يعتبرون أهل الحضارة الحديثة من الغربيين قد بلغوا هذا الدور، ولا يغترُّون بمظاهر القوى المادية؛ فلا الثروةُ ولا العلمُ ولا ما يُنْتِجون من طيَّارات ودبّابات ومدافعَ ووسائل

سيطرة على الحياة المادّية بمانعة من هزيمة واندثار الأقوام التي تذبذبت عقائدُها وضل أدبُها وانقلب عُرْفها.

بين المدنية والحق

ويرى بعضُ العلماء أن سلامة العقل البشريّ ليست لازمةً للرقيّ الماديّ؛ فقد يسيرُ هذا الرقيُّ عهدًا ما، وقد سُلِبَ الناسُ العقل الراجح والميزان الصحيح، ويكونُ سَيْرهم واندفاعهم مما يقرِّبُ قضاء الله فيهم وسُنّتَهُ فيمن خلا قبلَهم من المُتْرَفين، ومحققًا لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

الانهيار الفجائي

وإتيانُ أمرها ليلًا أو نهارًا هو الإشارةُ إلى معنى المفاجأة، فإن انهيار المدنية وسقوطَ القائمين عليها لا يكونُ عليه دليلٌ ظاهر من الأحوال الماديّة، ولكنه خَفِيٌّ خفاءَ القُوَى الذهنية والعوامل النفسية التي لها الأثر الأول في قيام الحضارة وسقوطها.

عوامل فناء المدنيات

ومن العسير جدًّا في مثل هذه العُجالة أن نخوضَ في تفصيل عوامل فَناء المدنية، ونستقصي أسبابها وأثَرَها وسرعتَها، ولكن ذلك لا يمنعُ من أن نشيرَ إلى سببين قد يكونُ مُجْمَعًا عليهما.

الترف

الأول: الترفُ، فإن الأممَ متى تهيأت لها بيئةٌ رُوحية صالحة سمت واندفعت إلى العمران والعلم فأنتجت، واستقامت لها الأمور بما يمسكُها من إيمان وأدب يوحّد بينها، ويجدّدُ مسلكَها، ويقوِّمُ مُعوجِّها، ويحفظها من التردد والقنوط، فتجدُ نفسَها بعد حين قد نَعِمت بالحياة ودانَت لها طيباتُ الرزق، فتلهُو بهذه الطيبات ثم تنغمس فيها ثم تعيش لهواها وتتسابق في شهواتها وتَثْقُلُ رسالةُ الحق عليها، بما تَفقد من الصبر وما تجدُ من لذّات عاجلة، فيداخلُها الشك في دعوة منشئ حضارتها، وترتابُ في كل تراثها الأدبيّ، وتجد غضاضةً في التقيّد، فيضيعُ العرفُ الذي يُمْسِكُها، وتتداعى القُوى الرابطةُ لكيانها، فتتفككُ العرى وتَحُلُّ الفوضى، ويستخلفُ الله للمدنيّة قومًا آخرين خِمَاصَ البطون، يُحبون الحق كما يحب المُتْرَفُون كأسَهم وغوانيهم.

وهذا الترف يتولد منه السببُ الثاني للانحطاط، فإن رسالة القوم الأولين تكونُ بسيطةً وهم قادرون عليها بتفرغهم لها. أما أعقابُهم فإن أعباءَ رسالتهم تتزايدُ بطبيعة نمو الحضارة نفسها، وبتطلبها مجهودًا

obeikandl.com

أشقَّ ونظرًا أدقّ وعناية لا تنقطعُ، فقائدُ الكتيبة في جيش الفاتحين الأولين يَحُلُّ محلّه بعد جيل قائدُ الجيش في دولة الحضارة الإمبراطورية، ومديرُ المَصْنع بعشرات الألوف من العمال، ومديرُ المَصْرف بآلاف الملايين من الدراهم.

الضعف عن حمل أمانات الحضارة

وتستلزمُ المدنيةُ عندئذ من أربابها قلوبًا متفرغةً وعقولًا صافية وأبدانًا رياضية ويَثْقُلُ حِمْلها، بينما يكونُ النعيم قد سلَبَ الناسَ العقلَ، واللذةُ قد قضت على الفراغ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ فيضعُفُ الجيل عن حَمْلِ الحضارة التي أنشأها آباؤُه بدافع معنويٍّ، فيَخُورُ ويَفقِد إيمانه بنفسه ويَهْوِي إلى الأرض مسلوبَ الرُّوح ضحيةَ الهوى والضلال، وكان آباؤُه في نهضتهم شهداء الحق والمروءَةِ والعزة، يحبُّون الموتَ كما أحب أخلافُهم الحياة؛ فعاش الأولون مشكورين، وماتوا مذكورين، أما هؤلاء فماتوا مدحُورين، وعاشوا مغمورين منسيِّين.

فلا شك أن العقيدة الصالحة التي تحيط بها وتَحُدُّها التقوى هي القوةُ الأولى لبناء المدنية، وضياعُها نذير بدمار المدنية.

ثم لا شك أن الإيمان القائم على صورة من العقائد الصالحة للعمران يسيرُ في ركابه عرفٌ صالح وأدب صالحٌ يستمد سطوتَه من العقيدة والإيمان؛ فهو القوة المَنَظِّمَةُ والمخرجةُ للدَّوْر الحاسم في الحضارة، وقد جرت سنةُ الله على أن النفوس البشرية يستهويها المتاعُ والنجاح بما يُهيئ لها من خيرات الأرض وطيباتها، فإذا تهيأت استغنى الإِنسانُ عن الكدِّ وطغى وصار إلى عاقبة الأمم الأولى.

هل جاء وعد الله؟

وإنه لَيَحْزُنُنَا أن يكونَ ما نرى في الدنيا نذيرًا بأمر الله! فلا الأممُ المتأخرةُ من المسلمين، ولا المتقدمةُ من المسيحيين واليهود، على شيءٍ من التقوى. تذبذبت العقائدُ، وذهب العرفُ، وساد حبُّ الدنيا، وعم الترفُ، فهل جاء وعدُ الله؟ إنا لنرجو أن يتدارك الله هذا العمرانَ بقوم خماصِ البطون يحبون الحقَّ كما يحبُّ المتحضرون المالَ والمتاع، ويرثون هذه الحضارة فيضيفون للعلم والعمران، ويَرُدُّون إلى الدنيا ذلك العقل الضائع والإيمان القويَّ.

وسيجدُ هؤلاءِ في الدعوة المحمدية كما وجد الأولون الروحَ والعقل والتقوى والهدى. نعم سيجدون الهدَى ذلك الذي هَزِئت به قريشٌ وقالت: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]؛ فلما اتبعوه خُطِفُوا من أرضهم لا للهوانِ، ولكن لسيادة الدنيا!

* * *

نظام جديد للعالم

صوت مع أصوات الدعاة

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التي نظنها صالحةً لنظام جديد يرضاه الأفراد والطبقات والأمم، غيرَ مقيدين في رأينا بما يقوله الدعاةُ في جوانب العالم، وعاملين جَهْدَ الطاقَة على التحرر فيما نبدي من رأيٍ من العصبية لعنصر أو مذهب من مذاهب الاجتماع، فإذا وُفِّقْنا ففي هذا كل الخير، وإذا أخفقنا فإنّا نرجو أن يكون الجهد ضمن الجهود المماثلة التي يستعان بها على الوصول إلى الحقيقة والهُدى.

فلنتحرر من النظريات القديمة

ولا بد لنا من أن نَرُوضَ تفكيرَنا على التخلص من النظريات القديمة التي كانت في عهدها حقائق صحيحة، والتي جعلها تطور الحياة الاجتماعية، وتقاربُ الأوطان بتزايُدِ سرعة النقل ضارّةً بسيْرِ المدنية، ولا شك أن العالم يَمُرّ في محنة غيرِ مسبوقة النظير؛ فإننا لا نعلم فيما بين أيدينا من تاريخ البشر مثلَ الذي دهى العالَمَ هذا الجيل، فليست غارات «التَتَر» التي لا يزال الناس يذكرونها قرينةً للويل، شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى الدَّمار والقتل العامّ الذي استطاعته الأسلحة الجوية، والفناءِ الذي يستطيعه تسخير العلم الحديث؛ فلا بد إذًا من نظام جديد لهذا العالم يتداركهُ من سقطته ودماره.

فما هو هذا النظام؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه في كل مكان، ولعلنا إذا ابتدأنا بَحْثَنَا كما يبتدئ الطبيب بالفحص عن أسباب العِلّة سلكنا الطريقَ المستقيم إلى تكييفها ثم إلى علاجها.

فأول ما يخطر في البال هو التساؤل: ما الذي جعل مدنيتنا الحديثة مع ما وصل الناس إليه من عِلْمٍ ومعرفة مصحوبةً بهذا الشر المستطير؟!.

المدنية في رأي كپلنج

يقول كپلنج: «إن المدنية هي النَّقْل»، وهو قول يستحق التفكير، فلننظر إليه من هذه الناحية، فكم من القرون قضى الإنسان ليتعلم تسخير الحيوان في النقل؟ ثم كم من القرون مرت ليكتشف العَجَلة

ويَربط بينها وبين الحيوان، وليُشْرِعَ للسفينة شراعًا ويستخدم الريح؟ وفي كل هذه القرون كم زادت سرعة حركته؟ فإذا قِسْنا ذلكَ بتسخير البُخار في القطار والسفينة أدركنا المفاجأة التي فوجئ بها العالم حين ظُهور المدنية الحالية قبل أقل من قرن، فإذا أضفنا إلى ذلك استخدامَ الكهرباء واكتشافَ اللاسلكي والسيطرةَ على الجو بالطائرات، ونظرنا إلى تطور سرعة النقل في السنوات العشرين الأخيرة، أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدنية هذا الجيل ومدنية الجيل الآتي.

إن متوسط السرعة قبل مائَةِ سنة لحركة الإنسان في الانتقال من مكان إلى مكان لم تَزِدْ على ثلاثين ميلًا في اليوم، ومتوسطُها الآن قد وصل إلى أكثر من مائتيْ ميل في الساعة، ولا يزال يزداد باطراد.

فإذا كانت المدنية هي النقل كما يقول «كپلنج»، وإذا كانت السرعة هي القياس لما بينها من فروق، فإن ما بين مدنيتنا ومدنية أبنائنا سيكون على هذه النسبة.

فكما فصل البخار العالم القديم من العالم الحالي فسيفصِلُ اللاسلكي، وكذلك هذه السرعة المتزايدة في الجو عالَمَنا من العالم المقبل.

وطأة العيش في عصور الانتقال

ومن سوء حظّ هذا الجيل أن يكون صلَةً بين عالَمين، وأن يذهب ضحيةَ الانتقال العنيف، وعلى ذلك هل نحن أهلَ هذا الجيل حقيقةً جديرون أن نضع نظامًا عالَميًا لمن بَعْدنا؟ قد يكون النظام الذي يرتَضُونَه بعيدًا عن تصوّرنا بُعْدَ نظامنا عما قبل استخدام البخار.

هل نستطيع نحن وضع نظام للمستقبل؟

ومن ناحية أخرى فإنّا نحن الذين لا نزالُ نجهل نفوسنا فلا نصرّفها ولا نملِكُها، ولا نحيط إلا بقليل مما أُودِعَ فيها من القُوَى الذهنية والقوى الروحية، لن نستطيع وضع نظام للعالم وهو ليس من صنعنا؛ فالإنسان فيه حيوانٌ أوتِيَ من القدرة ما يسمحُ له بالتصرف في نطاق محدود.

لقد سار العالم آلافَ السنين على وَتِيرَةٍ واحدة، كانت الحضارة تتقدم ببطء وتنتقل من وطن إلى وطن، وفي كل نُقْلَةٍ تنطوي مئات السنينَ قبلَ أن تذبُل، وتنقضي مئاتٌ أخرى قبل أن تزدهر في قوم جُدُدٍ، فكان العقل البشريُّ مستطيعًا في نِطَاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر إلى حدٍّ كبير على مُقَدَّرَات مدنيته؛ فلما تفجَّرت فجأةً ينابيعُ العلم الحديث زُلْزِلَت الأرض زِلْزَالَها وأخرجتْ أثقالَها فبُهِتَ الإنسان وقال ما لها!؟. ففي جيل واحد انقلب وجهها، وتناكر القديم والحديث.

ماذا بين آب جاهل وابن عالم؟

ولنضرب لذلك مثلًا: شيخ في قرية بجوار «طيبة» في صعيد مصر، يعيش كما عاش آباؤه في مصر القديمة، بَعثَ في أوائل هذا القرن بابنه إلى أمريكا فنَشأ هناك وتزوّج ورجع بأسرته إلى قريته، فوجد أباه حيًّا يفْلَحُ أرضه بمحراثه الفِرْعوني، ويأوي إلى بيت لا يزال على طراز العهد الهكسوسي، ويفكّر كما كانوا يفكرون أيام خوفو؛ لا شك أن الابن وأباه حين التقيا تناكرا، فكأنما هبط الابن من كوكبٍ آخرَ، فلن يستطيعا أن يتعاشرا ولا أن يتعاونا على شيء.

بين جاهل معاصر وجده الفرعوني

ولْنفرض أن الله بعث في تلك الساعة أحد سكان «طيبة» من قبره، بعث شيخَ بلدٍ من عهد «رمسيس» من أجدادهما؛ ليشهد الحفل العائلِيّ للابن العائد من أمريكا؛ فهل يجدُ الناس أن شيخ البلد الذي بعثه الله من قبره بعد غياب ثلاثة آلاف سنة، أقربَ إلى شيخ القرية، أم إلى ذلك الابن الذي ولد في القرن العشرين وغاب ثلاثين سنة فقط؟.

سيجد شُهُودُ الحفل أن الجدَّ الفرعوني أقرب إلى قلب الأب وعقله وطِراز حياته، من ذلك المولود فيهم، القادم عليهم من العالَم الجديد.

ثَلاثون سنة فعلَتْ بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرنًا! وهي لم تفعل ذلك في مصر وحدَها، بل في العالم كله، قرنٌ واحد بدّل وجه الأرض كما يبدله الزِّلزالْ، وفصلَنا عن ماضينا بعُنفٍ، وكأنما نقلنا إلى كوكب آخر.

وإذًا فهل حقيقةً نستطيع، نحن ضحايا هذا الانتقال، نحن الذين مَلَكْنا الآلَةَ وملكتْنا، وأصبحنا نسيّرها إلى مجهول وتطوينا في ثناياها إلى مجهول أعظمَ، هل نحن حقيقةً جديرون بوضْع نظامٍ لعالَم المستقبل؟

لنحذر عقوبة الغرور

إذا ظننا ذلك فإني أخشى عقوبة الغرور، وقد يكون من الخير والصواب أن نكتفيَ فيما نسمّيه «النظام الجديد» بعمل سَلْبِيٍّ، هو نظامٌ نمتنِع فيه بتَاتًا عن تسليط ما بأيدينا من قُوىً للتدمير والتخريب، وعن مضاعفة العوامل التي اضطرب لها وجودُنا كلّه.

إلى نظام سلبي مؤقت

يجب أن يكون هدفنا فيما نسمّيه «النظام الجديد» تَخفيف ويلات عهد الانتقال.

لقد شاهدنا الحرب العالمية الأولى، وسمعنا وتحمسنا لأحاديثَ عن نُظُم جديدة لعالم جديد، ونحن اليوم نشهد مرة أخرى حربًا أعظمَ وحديثًا أشهى، ولكن هل بين العقل الذي سيطر على أداة الدَّمار الماضية أربعَ سنين، من ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والعقل الذي سيطر عليها أكثر من خمس سنين من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ فرق؟ هو هوَ العقل العاجزُ أسيرُ الماضي، غلبته الآلة والمادّة ومدنية النقل المتزايدة السرعة، فحار فيها وناءَ بحمْلها.

أقبلنا شبَّانًا على أقوال عن عالم جديد فتحمسنا لها، فإذا سمعناها اليومَ بعد تجربة ملأتنا خَوْفًا وتشاؤمًا؛ لِمَا ظهر لنا من الكذب والعَجْز.

مشت الحَضارة البشرية القديمة في تطوّر بطيء مئات القرون فهضمها العقل البشريّ، أما الحضارة الحديثة فستحتاج إلى وقت طويل ليَهْضمها العقلُ البشريّ.

لا أمل في شيوخ الساسة والعامة، الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية

إنني قليلُ الرَّجاء في شيوخ السَّاسة وفي نُضُوج العامّة لتحمل المسئوليّات الجِسَام المتجددة، ولكنني عظيم الإيمان بالقدرة العليا التي تُدِيرُ هذا العالَم! ففي الطبيعة نفسِها كلُّ الرجاء، فقد خُلِقَ الإنسان وفيه من القدرة على الإفاقة من الصدمة، وله من المصانعة والمحاكاة والتطور ما يَضْمن بقاء النوع واستمرار رُقِيِّه، وسيكتشفُ الإنسان بغريزة حب البقاء بعد تجارِبَ مُرَوِّعة قاسية نظامًا عالَميًّا مناسبًا متجددًا يساير العصر الآلي، عصر السرعة المتزايدة، أقول نظامًا مناسبًا متجددًا؛ إذ ليس من الصواب في شيء أن نحاول إملاء نظامٍ كاملٍ ثابتٍ لا يتغير؛ فالأشكال والأوضاع والمستحدَثات كلُّها تحمل في طبيعتها التغير بل الزوال والفَناء.

وأكثرُ ما يقع فيه الإنسان من كوارثَ هو عقوبة الغرور والجهل، وأكثرُ ما يصيبه من شرٍّ هو ردُّ الفِعْل لافترائه وادعائه.

فلنؤجل النظم المثالية المجردة

فإذا حاولنا أن نعطي الناس نظامًا عالميًّا مثاليًّا، وتجاهلنا غرائزَ حبِّ الظهور والسيطرة والتعالي، مما هو كامنٌ في صميم النفس الإنسانية، فإننا نحاول إقامة هذا النظَام على بُركان من الغرائز الحيوانية المتفجرة الجامحة، وإذًا فكل نظام عالمي لا يُرْضِي الغرائزَ البشرية، ولا يُعِين على توجيه الدوافع الإنسانية، هو نظامٌ تقضي عليه الغرائزُ نفسُها، أو تتخذه وسيلةً لإشباع شهواتها، فمن شأن الطبيعة الإنسانية أن تقلب كلّ نظام مثاليّ وأن تكيّفه، وإلا أصبح بالنسبة لها نظامًا لا تطيقه.

من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيئ

وليس أدلَّ على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية إلى فلسفة سامية، خذ مثلًا دعوتين بينهما ألفا سنةٍ: المسيحية والشيوعية، فماذا صنعت بهما غرائز الإنسان الفِطرية الحيوانية؟ ألم تُرِدْ كلُّ دعوةٍ منهما أن تَرْسُم نظامًا مِثاليًّا ساميًا؟ فماذا بقِيَ من المثل الأعلى فيها؟ بَقِيَتْ تلك المأساة التاريخية الطويلة! فقد سُفكت باسم المسيحيّة وفي سبيل المسيحية التي تحرّم الحرب دماءٌ أغزرُ مما سُفك في سبيل أية دعوة أخرَى في تاريخ البشرية، بل إن القارة الأوروبية التي هي مقر المسيحية، هي وكر الحروب والدمار طوال الألف سنة الأخيرة.

ماذا بقي من وصايا المسيح الجميلة الرحيمة المتواضعة؟ ألم تصنع فيها غرائز الغَلَب والقهر والزَّهْو والاستعلاء صُنْعَها، وتستخدمْها في إشباع النوازع البشرية؟

كذلك الدعوة الشيوعية ليست حديثة، فهي أخت «المَزدكية» الفارسية ونسخة منها، دمّرت المزدكية فارسَ فيما مضى، وسُفِك في سبيل الشيوعية الحديثة من الدِّماء ما لم يُسْفَكْ من قبل في سبيل النهب والسلب في قوم من الأقوام؛ ومع ذلك فماذا يبقى من الشيوعية المثالية؟.

الظاهر أن النظام المثاليّ الكاملَ خيالٌ في هذه الدنيا؛ فإن الطبيعة البشرية تأباه، فهل يحسُنُ بنا أن نَجْرِيَ وراءه أو نُلِحّ في طلبه؟ أم الأَوْلى بنا أن نقنع بنظام دنيوي يؤدّي بين الطوائف والشعوب وظيفةً أشبهَ بوظيفة القانون العادي بين الأفراد، فيقتَص من أطراف الشر، ويُدِيم السّلم ويحصُر أذى الحرب ويوجّه الغرائز وجهة ترضاها، فتُشبعُ شهواتها من غير طريق العُدْوَان؟ نظام ييسر للجميع العَيْش، وتسنِدُه المَصلحةُ المشتركة للفرد والجماعة والشعوب في عالَم جعل منه النقل السريعُ وطنًا واحدًا.

وبعبارة أخرى: نظام هو مجموعة قواعدَ عامّةٍ تصبح عُرْفًا عامًّا يَرضاه الناس ولا يَعْصونَه.

* * *

الواجب قبل الحقّ

شغل المفكرين في العالم

قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى وبعدها، بل وقبل نشوبها، أقبل كثيرون من المفكرين المخلصين في العالم فرادى وجماعات على التفكير في نظام يرضاه الناس وينقذهم من مآسيهم وآلامهم، التي أوقعتهم فيها أسباب الاضطراب العالمي، التي استعرضناها في الباب السابق.

جمعية إنجليزية تضع دستورًا لحقوق الإنسان

ومن بين الجماعات الكبيرة التي اهتمت بذلك جماعة تألفت من أهل الفضل في «لندن»، يرأسها المحامي الشهير «اللورد سنكي»، ويقوم بدعوتها الكاتب المعروف «هـ. ج. ويلز».

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعًا أعلنت فيه حقوق الإنسان، واقترحت أن يكون دستورَ العالم بعد الحرب الأخيرة.

وقد تضمّن هذا الدستور إحدى عشرة مادّة، هي في نظر الجماعة حقوق الإنسان التي يجب أن لا تعترضها شريعة ولا عُرف ولا أيُّ نظام مَحَلِّيٍّ لبلد من البلاد أو شعب من الشعوب؛ فهي القانون الأساسيّ الذي يَجُبُّ كلَّ تشريع مخالف له.

استفتاء عظيمين من مفكري الشرق

وأهم هذه المواد يتعلق بحرمة المِلْك، وحقِّ التعلم، وحرية العقيدة، والحرية الشخصية، وحق العمل، وحق القاصر في حماية الجماعة... إلخ.

وقد بَعثتْ هذه الجماعة بمشروعها لرجلين عظيمين من مفكّري الشرق: هما المهاتما «غاندي»، والزعيم الهندي «جواهر لال نهرو» تسأل رأيَهما؛ فأجاب غاندي بما يأتي:

رأي غاندي

ما هي النتيجةُ العملية لإعلان هذه الحقوق؟ ومن ذا الذي يرعاها ويحرسُها؟ وسواء أكنتم

تقصِدون إلى الدِّعاية وحدَها أم إلى تنوير الرأي العام العالميّ، فقد ابتدأتم من الطرف المخطئ.. وإني أَقترح عليكم وأرى أن الصواب هو في أن تبتدئوا بإعلان «واجبات الإنسان»، ولا شك عندئذ أن الحقوق ستَتْبَعُ كما يَتْبَع الربيعُ الشتاءَ.

إني أكتب إليكم عن تجربة وخبرة، فقد بدأت حياتي مهتمًّا بحقوقي، وكان جُهدي منصرفًا لتقريرها والحصول عليها، وسَرْعَانَ ما أدركت أن لا حقّ لي حتى قِبَلَ زوجتي؛ فأخذت أنظرُ في واجباتي وما عليَّ قِبَلَ زوجتي وَوَلَدي وإخواني والمجتمع فأديتها، وأنا اليومَ أجدُ نفسي ولي من الحقوق ما ليس لرجل آخرَ أعرفه في هذا العالم.

غضب ويلز على غاندي

وقد أثار جوابُ غاندي غضبَ «ويلز» فحَمل عليه حملة مُنْكَرة، وعدَّه إباءً منه للتعاون، وتمشِّيًا مع مذهبه السلبي، واتهم غاندي بالتأخّر وبعدم إدراك ضرورة العصر.

ولكن هل أنصف ويلز غاندي؟ ثم أليس في كلام غاندي ما يستحق النظر والتفكير؟ ذلك ما سنبحثه.

رأي نهرو

أما «جواهر لال نهرو» فقد أرضى جوابُه ويلز، فقال عنه: إنه عَمليٌّ، وإنه يستحق عظيم الاهتمام، ولو أنه خالفه في أمور غير جوهرية.

يقول نهرو: سمع الناس كثيرًا مع الإعجاب مواثيقَ وبياناتٍ أعلنت حقوق الإنسان، وانتهت إلى لا شيء، وأحقها بالذكر ميثاق «بريان ـ كيلوج» الذي حرَّم الحرب.

ولقد نظرت في بيانكم عن حقوق الإنسان فأزعجني أن لا أجد فيه ما يَهْدِي إلى كيفية تحقيقه.

أنا لا أقصد التفاصيل، بل أقصد الأصول التي يقام على قواعدها العالمُ اجتماعيًّا واقتصاديًّا، وإذا كان من الحق، وهو عندي الحق، أن مآسِيَ العالم الحالية ترجع قبل كلِّ شيء إلى فساد نظامه السياسيّ والاقتصاديّ، فلا بد من تغيير هذا النظام؛ كي يستطاع تطبيقُ ما تريدونه من الحقوق التي أعلنتموها.

إن بيانكم، يا مستر ويلز، ليس قابلًا للتحقيق بحال من الأحوال ما دام النظام الاستعماريُّ والرأسماليُّ يَسُودان العالم، تقولون: إن لكل إنسان كذا وكذا من الحقوق، وهو كذلك، ولكن أنَّى لهذا الإنسان أن يصل إلى حقوقه تحت النظام الرأسمالي؟ ثم أنَّى له أن يتمتع بشيء منها ما دامت أمّةٌ أو

طبقة تسيطر على أخرى وتسخّرها؟ إن الطريق إلى الخَلاص هو الاشتراكية، وأن يقوم النظام العالمي الجديد على أصولها.

ذلك هو جواب «جواهر لال نهرو» وهو من الشخصيَّات العالَمية المحترمة، وسنعود إلى ما يشكو منه في الفصل المقبل، أما جواب غاندي فإنه كما قلت: رغم اعتراضات ويلز، يستحق النظر والتفكير.

مع رأي غاندي

فحقوق الإِنسان كثيرًا ما أُعِلنَتْ، وكثيرًا ما انْتُهِكت، وما دام الأقوياء لا يَرْتَدِعُون بداعٍ من التربية والعُرف والوجدان، فإنها تبقى حيث هي غيرَ قابلة للتحقيق.

فلنجرب طريقة غاندي

ويصحّ لنا أن نجرِّب تربية جديدة وطريقة جديدة، فنتخذ الواجبات أساس النظام الجديد؛ فبدلَ أن نحاول المساواة بين الناس في الحقوق، نقيم هذه المساواة على أساس الواجب؛ فربما كان ذلك أفعلَ في ردِّ العدوان، وفي احترام حق الغَيْر.

طريقة مجربة في الإصلاح

فلو أنّا عوّدنا الناس بالتربية إكرام القائم على واجبه أكثر من المُطالب بحقِّه، لجعلْنا الواجب مصدر العلاقات الأدبية والاجتماعية، وأَنشأنا نظامًا جديدًا لعالم أحسن من عالمنا الحاليّ؛ لأن التربية التي تجعل القيام على الواجب غاية الإنسان الراقي، تنتهي باحترام حقّ الغيْر احترامًا أحفظَ وأنفع للحقوق من كل قوة تُسْتَخدم لكسبها أو المحافظة عليها، ولعل هذه الطريقة في التربية هي التي تتناسب مع تاريخ الإصلاح البشريّ؛ فهي طريقة الأنبياء والمصلحين الذين وجَّهُوا همّهم إلى تعريف الناس بواجباتهم، فليس من المتعسر الرجوع إليها ولا خَلْقُ ذهنية جديدة أساسُها فضلُ من يُؤدون واجبهم على سائر الناس.

حرَّم الأنبياء القتل والسرقة والغدر والكذب، فشرعوا بذلك واجبات أساسُها النهيُ، فإذا أخذنا في التعرّف إلى ما نحرّمه على أنفسنا، وجعلنا هذه الحُرْمة عامّة ودولية، كان ذلك عملًا إيجابيًّا حاسمًا في سبيل إقامة نظام جديد، ولو كان ظاهره دعوى سلبية أساسُها النهي والتزام الواجب.

فمثلًا لو أن الناس أُدِّبُوا وعُلِّمُوا أن لا يُفرِّقوا بين القتل والقتال؛ لأن الواجب يحتّم على الإنسان المهذَّب المحترم أن يمتنع عن إزهاق أرواح الناس لغير جريمة ارتكبوها، وبغير قانون وقاضٍ يقضي

فيها، ولو صار الامتناع عن القتل في الحرب كالامتناع عن القتل في غير الحرب واجبًا، من يتعدَّاهُ يُعْتَبَر مُجرمًا، لكانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفعل في منع الحروب من كلِّ المواثيق والنُّظُم.

ولو سادت هذه التربية لكانت وظيفة الجندي على أحسن صورها كوظيفة الجلَّاد في نظر العامة سواء بسواء.

تحويل التصور البشري

نعم إن تحويل التصوّر البشري للأمور عمل شاقٌّ، ولكن ألم يتبدَّل في جيل أو جيلين تصوّرُ الناس لأمور كثيرة تبدلًا تامًّا؟ فلمَ لا يستطاع بالتربية والتدريب خَلْق عُرْف عام عالَميٍّ أساسه حرمة الواجب في كل الأحوال والظروف؟.

ولعله من المتيسر أن نوجه الغرائز البشرية التي نشكو منها في إفساد النظم المثالية وِجهةَ الفخر بأداء الواجب.

فالإنسان يَزْهُو بإنقاذ غريق أو التعرُّض للخطر في إطفاء حريق، فإذا صار العرف أن هذا العمل هو الذي تُسْتَحَقُّ عليه أعظمُ ألقاب الشرف، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد في ذلك هو البطولة الكاملة؛ لاستخدمنا غرائز الاستعلاء والظهور في الخير العام.

ولم لا يخلَّد ذكرُ الذين ظهرت آيات مروءتهم في تأدية واجبهم بَدَلَ الذين ظهرت قدرتهم على الافتراس والفتك بالغير؟ فقد نصل عن طريق تعليم الواجب وتقديسه إلى إقامة صرح الحق وتخليده، ونكون قد اصطلحنا مع الغرائز الفِطرية، فنَعْدِل عن كَبْتِها واستفزازها إلى توجيهها واستخدامها في تدعيم النظام الجديد.

ولا أظن أحدًا من جيلنا الذين شهدوا هذه الحرب والتي قبلها يمكنه أن يتصور نظامًا جديدًا يستحق البقاء لا يحرِّم الحرب تحريمًا باتًّا... فهل لذلك من سبيل أصلح من سبيل الأنبياء: سبيل التحريم عن طريق تعليم الواجب؟

فإذا لم نعلِّم الناسَ ونُرَبِّهم على احتقار القتال احتقارَهم للقتل، فأنَّى لنا أن نكفُل السَّلْم بتجريد أمم من السلاح أو وضع أمم مسلحة حُرَّاسًا على السلم؟ ومن ذا الذي يضمن أن لا يقتتل الحراس طمعًا فيما اؤتُمِنُوا عليه إذا لم تكفُل ذلك التربيةُ التي أساسُها تقديس الواجب؟!.

إعلاء الغرائز وتحويلها

ليست هذه التربية مستحيلة ولا هي خيالًا؛ فإن في حياتنا الأولية كثيرًا من الفخر بضبط النفس

والحرمان، وتاريخ المروءة تاريخ طويل يكاد يلازم الناس في كل جيل، وهذه المروءة بما تنطوي عليه من نكران الذات تَعلَّمها الناس بالاجتماع وبالدِّين فصارت فِطرية؛ لأن الغرائز التي ترضيها المروءةُ هي ذات الغرائز التي يُرضيها العدوان.

فحين كان فخرُ الناس بالكرم، كان إشباع غريزة حب الظهور في البذل والعطاء، ولما صار فخرهم بالأثاث والسيارات والمُقْتَنَيات، صار إشباع هذه الشهوة بالأَثَرة والأنانية.

ولو علّمنا أولادَنا أن زَهْوهم وإعجابهم ليس في أن يلبَسُوا ثوبًا جديدًا في العيد، حين لا يجد أولاد عمومتهم أو جيرانهم ثوابًا مثلَه، وعوّدناهم أن زَهْوهم وظهورهم في أن يمتنعوا مختارين عن لِبْسه تأسِّيًا بأهلهم، فإن غريزة حبّ الظهور تتدرب على إشباع غرضها بالامتناع، وتجد حظَّها في أداء الواجب.

تربية تستمر بها روح الأديان

ولن يكون هذا جديدًا في حياة الإنسان؛ لأنه يتناسب مع رُوح الأديان التي سيطرت على تاريخ البشرية الطويل.

إن فطرة الناس واحدة ومظاهرها متعددة؛ فالنفس البشرية تتكيّف حسب مُقْتَضَيَاتِ التربية والعرف العامّ لتُرْضِي الكَمِينَ من الغرائز فيها، ولا سبيل لإنكار الغرائز الفطرية لمن يفكّرون في تنظيم العالم، ونهجُ الأنبياء الذين وجّهوا الغَرَائز وِجهةً تُرْضي المروءةَ والمصلحة العامَّة، هو النهج المستقيم، فإذا نحن اليوم بَدَلَ أن نعلن حقوق الإنسان، أعلنَّا واجباته، وألبسناها حُلَلًا من الحرمة والتقديس، فإننا قد نوفَّق إلى نظام صالح جديد، وليكن القانون الأساسيُّ لهذا النظام متضمنًا واجباتِ الإنسان نحو أهل بيته وجيرانه ووطنه وجِنْسِه والمخلوقات الأخرى، وقد يكون ذلك أبقى للعرف العام، وأثْبتَ على مر الأيام.

* * *

ogeikandi.com

عِلل النظام الحالي

إجماع على فساد الرأسمالية الحالية

يقول «نهرو»: إن سبب فساد العالم يرجع في معظمه إلى فساد نظامه الاقتصاديّ والسياسيّ الحاليّ، وإنه لا سبيل إلى الإصلاح ما دامت الرأسمالية تسخّر طبقة لطبقة، والاستعمار يسخر أمة لأمة.

وقد وافق «ويلز»، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا الرأي؛ فالرأسمالية رغم أنها كلمة استعملت حتى ابْتُذِلَتْ، لا تزال تعبّر عن نظام يقوم على الرِّبا، ويَهْدِي إلى الترفَ والإسراف.

وهي وإن كانت باستنادها إلى حقوق المِلْكية الفردية قديمة العهد، فإنها تتكئ على مِلكية الآلة للعمل.

وهي بالانقلاب الصناعيّ الكبير الذي نشأ عن استخدام البخار والكهرباء حديثةٌ بعيدة الغَوْرِ في حياة الإنسان ونظام المجتمع، بل تكاد الرأسمالية الحديثة تكونُ شيئًا آخرَ غير نظام الملكية القديمة في آثارها ومظاهرها، وإلى هذه الرأسمالية يَنْسُبُ الاشتراكيون كلَّ مساوئ النظام العالميّ الحالي، ويعدون العَطالة والبؤس والتَّرف والإسراف من مظالمها.

خطر رأسمالية الآلة

لا شك أن ملكية الآلة، وحسن استخدامها، ودوام التحسين في إنتاجها، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع.

الآلات بركات كثيرة اللعنات

فبدلَ أن تكون وفرة الإنتاج وسهولتُه بركةً من بَرَكات عصر البخار والكهرباء، وبدلَ أن يكون استخدام الآلة والقوة سببًا في بهجة الحياة والسَّعة في أوقات الفراغ، انقلب الخير في ظلِّ النظام الاقتصادي الحديث إلى شر مستطير، وحُرِمَ الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء المناسب له، واختص «المموِّلون» بمجهود محدود وثمرات وفيرة، فارتفعوا فيه إلى مستوى الأمراء في العهد الإقطاعي، وسارت الكثرة تنظر إلى مباهج الحياة ولا تشترك فيها، بل فقدت طوائفُ المتعطلين والذين

على حافّة التعطل هناءَة العيش وهناءَة الإيمان في ضوضاء الآلة، وكان الدِّين من قبل يُمِدُّ المُعْوِزين بالسَّلْوَى والعِوَض في الدار الأخرى، أما الآن فقد ضعفت سيطرة الدين، وذهب مدده من العزاء.

مادية لا سند لها من الروح

نعم كانت الأديان تخفف من آثار المِلْكية بدعوتها القوية إلى الزهد، واشتراك المحرومين في ثمرات الكسب بقوة القانون، كما فعلت الديانة المحمدية، أو بتحريم مَلَكُوت السماءِ على الأغنياء، كما فعلت المسيحية.

مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية

وكأنما النظام الرأسمالي الحديث وقد سُلِبَ السنَدَ المَعْنَوِيَّ والرُّوحِيّ، يتجه بعُنْفٍ نحو الأَثَرة والاستزادة من الترف والإسراف، فيقذِفُ بلا رحمة في هاوية التعطل فريقًا، ويسخِّر فريقًا آخر، وليس أدلَّ على ما وصل إليه الخطر من أن المتعطلين في بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب[1] عدة ملايين، وبريطانيا هذه هي سوق الأموال في العالم، ومن أهم مراكزه، وتنفرد فوق ذلك بمُلْكٍ لم يُؤْتَه بلدٌ في العالم، تُجْبَى إليها الأموال من القارات الخمس، ومن الأبيض والأسود والأصفر.

رجال الكنيسة الإنجيلية يتحولون إلى اليسار

بريطانيا المحسودة تنوء بعبء النظام الاقتصادي الرأسمالي! وليس أدلَّ على تداعي هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلوا سَنَد العناصر المحافظة جيلًا بعد جيل أخذوا يتحولون من اليمين إلى اليسار؛ يتَّقُون أن يغمرهم سيل الفتنة كما غمر رجال الكنيسة الروسية، فنزعوا إلى التأويل أو رجعوا إلى المسيحية الأولى.

وآخر ما علمنا في هذا الشأن قرارُ مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الإنجيلية، وهي قرارات لو نشرت في أول القرن لَظُنَّ أنها مما أوحى به «كارل ماركس» أو بعض تلاميذه، وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار، فإنه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة في الغرب، وإنا لنرجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأي في البلاد الإسلامية؛ فإن شريعتهم هي الشريعة التي وُفِّقت كل التوفيق في تناولها هذه المشكلة المعقدة.

إلى التوازن الإسلامي

فلا بد للمسلمين الذين اندفعوا على غير هدى إلى تقليد الغرب من الرجوع إلى الإخاء والزكاة

---

(١) أي: الحرب العالمية الأخيرة، (الكتاب صدر في ١٩٤٦).

والتوازن بين الطبقات؛ ذلك التوازن الذي أقامته شريعتُهم على أساس أن البِرَّ حق معلوم في أموال الأغنياء، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وعلى مسئولية ولي الأمر وسلطته الواسعة في النظر إلى حاجات المسلمين، وليس المقام مقام استرسال في نواحي الشكوى من النظام الحالي. فالصيْحة تتردد من أوائل هذا القرن في جوانب العالم كلِّه، والفتن يأخذ بعضُها بِرِقَاب بعض، فلا بد إذًا من نظام اقتصاديّ جديد يحل محل النظام الحالي.

الاستعمار الحديث

ولْنَرْجعْ النظر إلى العنصر الثاني لفساد المجتمع الحالي في رأي «نهرو» وهو الاستعمار، وإذا كانت الرأسمالية قديمة ولها من الألفة بها سَنَدٌ؛ فإن الاستعمار حديث، والفطرة تأباه وتُبْغِضه، وقد عملت كل الأمم في كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبي.

وإذا قلنا: إن الاستعمار حادث، فليس معنى ذلك أن الناس والحكام لم تتقاتل على الأرض ومِلْكيتها، أو على المُلْك وسَعَتِه؛ فذلك قديم، وإنما الجديد في الأمر هو ذلك الطغيان العامّ باسم التَّمْدِين، وقِوَامة الأمم الأوروبية على العناصر الملوَّنة كما يقولون.

سادت الأقوام الأوروبية الأصل الدنيا، وأصبحت الكرة الأرضية كلها في متناول الاستعمار الحديث، بتطور وسائل النقل والسرعة.

وكان فيما مضى زحف «تحتمس» من النيل للفرات غير مسبوق، وسير الإسكندر من الفرات إلى السِّنْد أعجوبة التاريخ. كانت شرور الفتح والنهب محدودة وطرائق الأَثرة والاستغلال أوّلية.

ويلات عالمية

أما اليومَ فويلات الاستعمار عالمية، وآثاره تشمل الكرة الأرضية، وقد أنصف كثير من الكتّاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين، ورَثُوا لحالهم قبل الحرب الماضية، ولعلهم اليوم يَرْثُون لما أصاب الغازين أنفسهم؛ فهم يستحقون كذلك الرثاء.

شاهد حق

قال الكاتب الإنجليزي المشهور «سدني لو» سنة ١٩١٢ يصف الاستعمار: «ما أشبه غالبَ الدول الأوروبية في سلوكها هذا الذي ما برِحَتْ تسلكه منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية بعصابة من اللصوص يَهبِطُون على الحِلَلِ الآمنة: فيُثْخِنُون فيها، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب؛ وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدةً للدعوى الباطلة بأن القويَّ الشاكِي السلاح يَحُقُّ له الانقضاضُ

على الضعيف الأعزل، وآتِية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حِيالَ القوة المسلحة! ففي خلال عشرين سنة ثارت ثائرة الاستعمار في أوروبا، وهبّت عواصف الحضارة المادّية الهوجاء، فقوّضت الآداب والحقوق الدولية تقويضًا».

ذلك ما قاله «سدني لو» قبل الحرب العالمية الأولى، وقد توالت حملات الاستعمار على العالم الشرقيّ آخذًا بعضها برقاب بعض.

لو أن «لو» كتب في الاستعمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه للمستعمرين الغربيين أكثر من رثائه للمغلوبين الشرقيين.

شاهد من العالم الجديد

وقد دافع كذلك عن الشرقيين بعد الحرب العالمية الأولى الكاتب الأمريكي «لوثروب ستودارد» في كتاب «حاضر العالم الإسلامي»[1] بهذه العبارة: «إن مبادئ الحرية التي سادت في الغرب، ونُودِيَ بها غالب القرن التاسع عشر، قد هبّت عليها ريح هَوْجاءُ من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شرَّ مُمَزَّق، وبُدِّدَت صورها كل مُبَدَّد؛ إذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يُوغِر قلوب الدوَل الغربية، حتى طَفَح الكيْل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى، واشتد نهم أوروبا وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار، ومناطق السيطرة، ونَيْل الامتيازات، واحتياز الأسواق الاقتصادية، اشتدادًا وحشيًّا غير مسبوق المثيل».

فلو أن «ستودارد» كتب بعد أن وقعت الحرب العالمية الثانية وشهد ويْلاتها، أمَا كان يَرْثي هو أيضًا للغالبين كما رَثى لحال المغلوبين؟.

إن السيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسعى لإشباع شهوات الرأسمالية الحديثة في الأسواق والمواد الخامة، وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متسانِدَيْن أسسَ هذا الاضطراب العالميِّ الذي قد يقضي على الحضارة كلها.

فلا بد إذًا من نظام اقتصاديّ وسياسي جديد.

وحين يقول «نهرو» ويوافقه «ويلز»: إن النظام القائم على الرأسمالية والاستعمار والذي يعيش في ظل سيطرة طبقة على طبقة، وأمة على أمة، ليس نظامًا صالحًا للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما، وإنما يأتي الخلاف حين يُقْتَرح العلاج.

* * *

(١) عربه الأستاذ عجاج نويهض، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

مقترحات

البدء بتقرير قواعد بسيطة

مما تقدم يتضح أن رسم نظام كاملٍ لحياة عالمَية سعيدة، أو وضع تفصيلات لنواحي هذا النظام، ليس من شأنه أن يعين على قبولهِ أو كماله؛ فنحن لذلك أَمْيلُ إلى البدء بتقرير أسس وقواعد بسيطة، يقوم بعضها على «الامتناع» ومعرفة الواجب وأدائه. وقد وَضَح كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية الحديثة قد تطورت من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين بكيفية أحدثت أثرًا بالغًا في تقسيم الناس إلى أمم مسيطرة مستغِلة، وأممٍ مغلوبة مسلوبة، كما فرقت الجماعات في هذه الأمم الغالبة والمغلوبة إلى طوائف وطبقات حاقدة متعاديَة، وقد أدت هذه النظم دَوْرها في تجارب البشر، ولا بد لها من التطور لمسايرة عهد السرعة والإِنتاج الآلي.

فهذا التطور من شأنه أن يمهد السبيل لعهد جديد أساسه الإِخاء العام، وهدفه التعاون على الخير والبر.

* * *

عالم واحد لا يتجزأ السلم فيه

وعالمنا الجديد، وقد أصبح في حيّز الإِمكان الطواف حوله كلّه في يوم وليلة، واتصلت أطرافه باللاسلكي والراديو في لحظة، عالمٌ واحد لا يتجزأ السلم فيه، ولا سبيل لسعادة قوم منه على بؤس الآخرين، ولا بد له أن ينتهي إلى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات منها لقيادتها، فتُولَد عندئذ الحكومة العالمية التي نرى فوائدها في نظام «الأمم المتحدة»، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية يُقِرُّ الناس شرعيتها كما يقرون شرعية حكوماتهم القومية، ويَدِينون لها بولاء مماثلٍ لولائهم لدولهم.

التدرج إلى حكومة عالمية

هذه الهيئة العالمية التي تتدرج إلى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضيء بها في رسم الخطط العامة لسياسة الدنيا، على أن تكون هذه القواعد العامة بسيطة ومقبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم.

فمثلًا: تكون مبادئ المساواة والإخاء بعضَ قواعدها، فيكون ما ترسم للناس مقيَّدًا بحقوق المساواة وحقوق الإخاء.

ومثلًا يكون فيها حق العَيْش وتأمين الحاجة حقًّا طبيعيًّا يَهْدِفُ إليه الجميع، كحق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع، فيكون إطعام الناس، وتأمينهم من الخوف واجبًا على كل الناس.

البدء في قلوب الطفولة

مثل هذه القواعد الفطرية، إذا دُرِّبَ الناس على تقديسها تقديسَهم لأديانهم وأوطانهم، ولُقِّنوها في طفولتهم وهم في أحضان أمهاتهم وحين تنشئتهم في المدارس، تنتهي حتمًا إلى إقامة صرح نظامٍ عالميٍّ عليها، موطدِ القواعد ثابت الأركان.

من التربية القومية إلى التربية العالمية

وإذا اتفقت جميع الدول في «هيئة الأمم المتحدة» على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة، وجدّت كل دولة في بثِّ هذه الأفكار في نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها، مكّن ذلك «الأممَ المتحدة» من التطور إلى الهيئة العالمية التي نرجو أن يدين لها الناس بالولاء والطاعة.

إن أثر الدعوات الإنسانية وأثر التربية واضح في تاريخ البشر وضوحًا حاسمًا ومؤثرًا في حياتهم؛ فالدعوات الدينية التي غالبت الدهر وعاشت القرون واستمرت تفعل فعلها في نفوس الناس وفي تكوين الهيئة الاجتماعية، شاهدٌ على قابلية البشر لقبول الدعوات الإنسانية السامية للتآخي والتعاون، وإن ما حرَّمته هذه الدعوات استقرّت حرمته في نفوس الناس، فكَبَحت من جموحهم ومن شهواتهم، وحولت الدوافع والغرائز لتتخذ لمظاهرها أشكالًا وألوانًا أخرى، فإذا دعونا إلى تحريم الحرب وتمكنت هذه الدعوة من النفوس، لاستحال تسيير الجيوش للقتال إلا بقدر ما يحدُث من الشذوذ ضدَّ إرادة المجتمع، من تكوين عصابات من القَتَلة للسلب، ويصبح الوجدان الإنساني أشد نفورًا في التوجه بالأذى والقتل إلى شخص مجهول له، أكثرَ من شعور الفرد العادي حين يهم بجريمة القتل ضد أحد المارّة.

وهكذا إذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لمصلحتهم، واستخدام الجاه أو النفوذ أو الحيلة للمنفعة الذاتية يعتبر عملًا من أعمال السرقة، فإن الوجدان البشري ينتهي إلى اعتبار هذا الاستغلال بأنواعه إجرامًا، كما يعْتَبِر السارق الذي يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرمًا.

فعلى الدعوة والتربية العامة التي تجعل الناس ينظرون إلى هذه المبادئ البشرية نظرتَهم إلى القواعد التي تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد في أسرة أو وطن، يتوقف تمهيد السبيل للنظام العالمي

الجديد الذي لا بد منه لتطور الحضارة، ولاجتناب الفناء الذي هيأت أسبابه سيطرةُ الإِنسان المتزايدةُ على المادة، وعلى مجرى الأمور في سلم المجتمع العالمي.

التدرب على الغضب للمصلحة العالمية

ويجب أن يُعَلَّم الناسُ الغضبَ لأشياءَ عامة، وفي المصلحة البشرية كما عُلِّموا الغضب لأوطانهم وعقائدهم الدينية؛ فتكون غَيْرتهم وانفعالهم للعدوان على حقوق الغير أو للتقصير في عمل الواجب نحو الناس كافَّة موجَّهَةً بالغريزة كتوجهها في الماضي للدفاع عن حق الأسرة وشرفِها.

فلنتعهد النواة الصالحة في هيئة الأمم المتحدة

وأخيرًا إن وجود «هيئة الأمم المتحدة» في شكلها الحالي، ورغم المؤثرات التي رافقت ميلادها يَفْسَح المجال لآمال كبيرة في الاتجاه الذي نشير إليه؛ فهي نواةٌ صالحة إذا تُعُهِّدَتْ بالاحترام والثقة فيها، وأدركت الدول أنه لا سبيل إلى التخلّي عنها، بل اتخذتها محكَمَتها ومرجعها في كل نزاع؛ حتى يشعر الناس تدريجيًّا بضرورتها لسلامة عَيْشهم وأمنهم، فيضحُّوا عن طيب خاطرٍ في سبيل استمرارها وقدرتها كثيرًا من حقوق السيادة التي أظهرت الدول فيما مضى غَيْرةً قوية على التمسك بها، بل قد يأتي اليوم الذي تضع فيه الدولة من الدول سيادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة؛ لضمان أمنها أو يُسْرها، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية والاجتماعية.

فعلينا في سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصمم.

ولنحذرْ اليأس ونتعلقْ بأهداب السعي المتواصل لتمكين «الأمم المتحدة» من سد هذا الفراغ في حياة العالم الجديد.

* * *